

التدخل الروسي في الأزمة السورية

ا.م.د. عامر كامل احمد
مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية
جامعة بغداد - العراق -

ملخص البحث

إن الهدف الروسي من الحضور بقوة في الأزمة السورية هو إستمرار بقاء نظام الرئيس بشار الأسد من أجل الحفاظ على قاعدتها العسكرية الوحيدة في منطقة الشرق الأوسط ، وإبعاد "القوى الإسلامية المتطرفة " من المشهد السياسي السوري، إضافة إلى وأن مخاوفها من إرتدادات العناصر المتطرفة المقاتلة في سوريا – مستقبلاً - إلى الأراضي الروسية نفسها.

يعد التدخل العسكري الروسي في منطقة الشرق الأوسط وبالذات في سوريا- بأنه تنافس جديد على تقسيم النفوذ في منطقة بين القوى الكبرى، لذلك فهو محكوم بقدرات روسيا في حماية مصالحها، لاسيما عندما أدرك الرئيس فلاديمير بوتين بأن مصالح بلاده معرضة إلى التهديد من قوى إقليمية ودولية، وأن المنطقة مقبلة على إعادة رسم خارطة جديدة للمصالح الإستراتيجية، وهو ما دفع بها للدخول بكل ثقلها العسكري والسياسي في الأزمة السورية.

Abstract

The Russian military intervention in the Middle East and particularly in Syria as a new competition for the division of influence to the region between the major powers, so it is governed by the capabilities of Russia to defend their interests. President Vladimir Putin when he realized that the interests of his country vulnerable to the threat of regional and international powers and that the region's future is to redraw the map of strategic interests between those forces, Russia entered with all its military and political weight.

The aim of the Russian presence strongly in the Syrian crisis is for the continued survival of President Bashar al-Assad's regime to keep the only military base in the Middle East and the removal of the Islamic extremist forces of the Syrian political scene and that the fears of the repercussions of combat extremist elements in Syria to Russian territory in the future.

مقدمة

لم يكن التدخل الروسي في الأزمة السورية متوقعا بهذه الحدة، وبذلك الثقل العسكري الممارس ميدانيا لذلك تضاربت الآراء وتعددت حول حقيقة الأهداف التي تسعى لها روسيا من هذا التدخل، فبعد خمس سنوات من الدعم الروسي لسوريا والدفاع عنها في مجلس الأمن، ودعم نظامها بالسلاح والمستشارين العسكريين بتثبيت تدخلها بشكل مباشر على خط الأزمة.

والجدير بالذكر، أن التدخل العسكري الروسي قد بدأ عملياً في 30 أيلول 2015 وذلك بحجة مواجهة ما يسمى (بتنظيم الدولة الإسلامية)، حيث قام سلاحها الجوي بشن غارات ركزت على الفصائل المسلحة التي تقاتل النظام السوري، إلا أن الهدف الرئيس من هذا التدخل هو وقف انهيار الجيش السوري، ودعم نظامه الذي بدأ يخسر المزيد من المدن والأراضي لصالح المعارضة المسلحة.

فضلا عن ذلك فهي محاولة روسية لاستعادة التوازن بين الأطراف المتصارعة (المعارضة والنظام)، لما يؤدي إلى إطلاق خارطة طريق لعملية سياسية تنهي الأزمة وهذا ما حصل بعيد مدة قصيرة من هذا التدخل، إذ بدأت بالشروع برسم مسار سياسي إلى جانب المسار العسكري، من خلال فتح حوار مع القوى الدولية المتمثلة بالولايات المتحدة الأمريكية، بوصفها شريكا رئيسا في معالجة الأزمة، وقوى إقليمية كالسعودية وتركيا التي لها ثقلها في المنطقة وهو ما أدى إلى إنطلاق جولات المفاوضات بين المعارضة والنظام، وبرعاية رباعية تكونت من روسيا والولايات المتحدة وتركيا والسعودية، قبل ان تتوسع لتشمل 17 دولة، ومن ضمنها إيران، في إطار ما أصبح يعرف بمجموعة دعم سوريا، ولكن جولات المفاوضات لم تحقق شيئا فتحوّلت إلى لقاءات ثنائية بين روسيا والولايات المتحدة بغية التوصل الى تفاهات مشتركة بينهما، وأسفرت تلك اللقاءات التي جرى عقدها في عاصمة النمسا (فيينا) للتوصل الى اتفاق بموجب خارطة طريق جديدة لحل الأزمة السورية، بالشكل الذي جرى تضمينها في قرار مجلس الأمن (ذي الرقم 2254 بتاريخ 18 كانون الاول 2015) والذي نص على وقف إطلاق النار، وتشكيل حكومة شاملة وذات طابع غير طائفي، وتعديل الدستور وإجراء انتخابات خلال 18 شهرا تحت اشراف الامم المتحدة .

إشكالية البحث

في الوقت الذي تتصاعد فيه حدة الأزمة السورية - بسبب التدخلات الإقليمية والدولية - أصبحت السمة الأبرز في هذه الأزمة التدخل الروسي، الذي قلب موازين القوى الداخلية والإقليمية، فبعد أن شهدت الفترة الأخيرة تفوق المعارضة وتراجع النظام اندفعت روسيا عسكريا إلى قلب الأزمة، مما أدى إلى تعقيد المشهد السياسي السوري، فالبحث عن حلها يبدو صعبا لكثرة اللاعبين الإقليميين، وصراع النفوذ المتعدد الأطراف، وعدم إتفاق الولايات المتحدة الأمريكية على صيغة توافقية مع الأطراف المعنية لتسوية الأزمة، وعليه يمكن طرح التساؤل التالي :

هل سيؤدي التدخل الروسي في الأزمة السورية إلى الدفع بها إلى إيجاد صيغة توافقية لإيجاد حل لها، بموافقة الأطراف الدولية والإقليمية المعنية بها ؟

فرضية البحث

إقتضت المصالح الإستراتيجية الروسية الكبرى إلى التدخل وبقوة في الأزمة السورية وذلك لإستعادة دورها و إعادة التوازن الدولي الى سابق عهده.

منهجية البحث

سيتم الإعتماد على المنهج الوصفي التحليلي وذلك عبر التعامل مع التحرك الروسي العسكري في الأزمة، لفهم دوافع التدخل والاسباب السياسية الكامنة وراءه، ومستقبل الحضور الروسي في المنطقة. وسيسلط الضوء على الأسباب والأهداف الكامنة وراء التدخل الروسي، بعد مرور أكثر من أربعة سنوات على الأزمة السورية، ومستقبل هذا الدور في منطقة الشرق الأوسط، وهذا من خلال أربعة محاور هي:

المحور الأول: تطور العلاقات الروسية السورية خلال حكم الأسد .

المحور الثاني: الموقف الروسي من الأزمة السورية ، من عام 2011 حتى عام 2015.

المحور الثالث: الموقف الإقليمي والدولي من التدخل الروسي.

المحور الرابع: مستقبل التدخل الروسي في الأزمة السورية.

خاتمه

المحور الأول: تطور العلاقات الروسية السورية في ظل حكم آل الأسد

تعود العلاقات الروسية السورية إلى منتصف أربعينيات القرن الماضي، فقد أعترف الإتحاد السوفيتي بإستقلال سوريا عام 1946 وأقام معها علاقات دبلوماسية ، إزدادت تطوراً في ستينات القرن الماضي، وتوثقت بعد وصول الرئيس السابق حافظ الأسد إلى سدة الحكم عام 1970 ، فقد جرى توقيع إتفاقية بين الطرفين عام 1971، لبناء قاعدة عسكرية في طرطوس على ساحل البحر المتوسط ، كما وقع الطرفان عدة إتفاقيات ذات أبعاد إقتصادية وعسكرية، فضلاً عن ذلك توقيع معاهدة للصدقة والتعاون الإقتصادي عام 1980، والتي شطبت على إثرها روسيا 73% من الديون التي ترتبت على سوريا، والتي بلغت 13 مليار دولار⁽¹⁾.

إستمرت العلاقات الوطيدة بعد وصول الرئيس بشار الأسد على الرغم من تراجعها بعد تفكك الإتحاد السوفياتي، إلا أنها إستعادت حيوتها بعد تسوية الديون المترتبة على سوريا وبعد أن قررت روسيا شطب 80 بالمئة من الديون، وتم الإتفاق في عام 2008 على إنشاء قاعدة بحرية دائمة ، وإطلاق مشروع للغاز في الفرقلس بحمص، وتطورت الإستثمارات الروسية في سوريا منذ عام 2009 الى 20 مليار دولار، وبلغت مبيعات الاسلحة بين عامي 2007 و 2010 سبعة مليارات دولار⁽²⁾.

ولقد أسهمت روسيا في دعم الإقتصاد السوري، حيث شكل حجم التبادل التجاري الجزء الأساس من عملية تحديث القوات المسلحة السورية، ولذلك شكل تدفق الأسلحة الروسية السبب في قوة النظام في مقاومة الجماعات المسلحة.

وتجلت رغبة البلدين في تمتين وتعزيز هذه العلاقات التاريخية، من خلال تواصل المشاورات واللقاءات والاجتماعات الثنائية، على المستويات السياسية والأقتصادية والتجارية والثقافية، حيث شهدت خلال السنوات الماضية مزيداً من التطور، الذي ترجمته الزيارات المتبادلة بين مسؤولي البلدين على أعلى المستويات.

ولقد جرى أثناء الزيارتين التي قام بهما الرئيس السوري بشار الأسد إلى موسكو عامي 2005 و 2006 ومحادثاته مع الرئيس فلاديمير بوتين جرى فيهما توقيع عددا من الإتفاقيات في المجالات السياسية والإقتصادية، وحرص البلدين على التنسيق المستمر تجاه مستجدات الأوضاع في المنطقة لاسيما الأوضاع في العراق والضغوط التي تتعرض لها بلاده وجرى الإتفاق حول جملة من القضايا التي تهم البلدين وخاصة في المجالين العسكري والإقتصادي، وتجسد ذلك في وثيقة الإعلان المشترك حول مواصلة تعميق علاقات الصداقة والتعاون⁽³⁾.

ولا شك أن الزيارة الأخيرة للأسد بتاريخ 20 تشرين أول 2015 أكتوبر وهو الخروج الأول له بعد الإحتجاجات التي شهدتها بلاده في منتصف آذار مارس 2011⁽⁴⁾، قد فتحت آفاقاً واسعة من خلال التفاهم والتنسيق حيال العديد من القضايا الإقليمية والدولية، لا سيما أن سوريا كانت تتعرض في هذه المدة إلى ضغوط أمريكية وغربية ترمي إلى تغيير مسارات سياستها الإقليمية فيما يتعلق بموقفها من الأوضاع في العراق، وأتتهامها بإدخال المسلحين عبر حدودها مع العراق لإفشال المشروع الأمريكي في المنطقة، وكذلك إبعادها عن إيران وسياستها في المنطقة الراضية للوجود الأمريكي.

بالمقابل، فإن الزيارة التي قام بها الرئيس الروسي السابق ديمتري ميدفيدف في آيار/ ماي عام 2010 إلى سوريا جاءت ضمن إطار تعزيز الشراكة الإستراتيجية بينهما، وبعث برسائل إلى الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوروبية لاسيما بريطانيا وفرنسا بأن سوريا ليست وحدها، وأن أية عمل عسكري يستهدف نظامها ستكون روسيا حاضرة في الدفاع عنه، إضافة إلى تأكيدها بأن الدول التي تريد إنهاء الأزمة ينبغي عليها دفع الأطراف المتصارعة إلى طاولة الحوار وأن روسيا تعلن تمسكها بمبادئ وأحكام القانون الدولي والإلتزامات المنبثقة عن ميثاق هيئة الأمم المتحدة والمعاهدات والإتفاقيات الدولية النافذة، التي تكون روسيا طرفاً فيها⁽⁵⁾.

وإنطلاقاً من تلك الزيارات جرى التباحث عن تفعيل الحضور الروسي في المنطقة، لتحقيق التوازن والتعددية وكسر إحتكار القطب الأوحده، والتخلي عن أرث ومخلفات الحرب الباردة، ورفض اللجوء الأحادي لإستخدام القوة كسبيل لحل الأزمات الدولية، سيما أن سوريا كانت معرضة لحملة عسكرية من قبل الولايات المتحدة الأمريكية بعد إتهام النظام السوري بإستخدامه الأسلحة الكيماوية ضد المدنيين⁽⁶⁾.

وعليه، فإن روسيا قامت منذ بداية الأزمة لاسيما بعد أن تعرضت سوريا إلى ضغوط أمريكية وإقليمية بدعم النظام السوري رغم دعوتها المستمرة للنظام بضرورة الإصلاح وإجراء حوار معمق مع المعارضة فلم تتدخل في الأزمة عسكرياً إلا بعد مرور أربع سنوات.

المحور الثاني: الموقف الروسي من الأزمة السورية من عام 2011 حتى عام 2015

القادة الروس منذ بداية الأزمة السورية كل طاقتهم السياسية والدبلوماسية واللوجستية في دعم النظام السوري، فقد عطلت روسيا قرارات في مجلس الأمن الدولي بإستخدامها الفيتو ضد مشاريع قرارات أمريكية وبريطانية وفرنسية تدعم التغيير في هرم النظام السوري، بالمقابل سعت الى تقديم دعمها العسكري اللوجستي للنظام السوري، من أسلحة وخبرات ومستشارين، لتقوية في مواجهة المعارضة السورية المسلحة⁽⁷⁾.

وعلى الرغم من الإتهامات التي وجهها الغرب وفي مقدمتها الولايات المتحدة وبعض الدول الخليجية إلى روسيا بأنها كانت سببا في إطالة أمد الأزمة، بل ذهبت كل من السعودية وقطر بإتهامها بإعطائها إجازة للنظام السوري بقتل المدنيين، لذلك جرى تحميلها تعطيل مشاريع قرارات في مجلس الأمن كانت تهدف إلى تغيير النظام السوري، كما أنها تعد مسؤولة أخلاقيا عن كل هذه التداعيات، إلا أن القادة الروس برروا دعمهم لنظام بشار الأسد بأن التغيير يصب في صالح الجماعات الإسلامية المتطرفة، وأن ثمة تهديدات وتحديات يواجهها العالم الغربي من تمدد الحركات الجهادية في المنطقة⁽⁸⁾.

كما أنهم رحبوا بالإصلاحات التي أعلنتها القيادة السورية تعديل الدستور في 26 شباط 2012 و أعربوا عن دعمهم للنظام في خطواته الإصلاحية، وبالمقابل، عارضت روسيا أي عملية عسكرية دولية، كما عارضت أي عقوبات إقتصادية ملزمة للنظام،

بل سعت إلى طرح مبادرات، وحضور مؤتمرات عدة لحلحلة الأزمة السورية، ففي نهاية حزيران /جوان 2012 وبدعوة من الأمم المتحدة عقد إجتماع لمجموعة الإتصال حول سوريا، وجرى تسميته بجنيف (1) وحضر الإجتماع كل من وزير خارجية روسيا والولايات المتحدة الأمريكية وعدداً من الدول الإقليمية والدولية، وتمخض عن الإجتماع مجموعة من المقترحات للمرحلة الإنتقالية وهي:⁽⁹⁾

- الإتفاق على تشكيل حكومة إنتقالية من النظام والمعارضة، تتمتع بكافة الصلاحيات التنفيذية.
- إعادة النظر ببعض الفقرات التي وردت في الدستور، لاسيما ما يتعلق بهيمنة الحزب الحاكم، والبدء بإصلاحات القانونية.
- البدء بالتحضير لإنتخابات حرة، وأن تشمل الأحزاب كافة دون إستثناء.
- على أطراف الصراع أن يضعوا حدا لإراقة دماء الأبرياء المدنيين، وأهمية الإلتزام بالنقاط التي أعلنها مبعوث الأمم المتحدة، واحترام مراقبي الأمم المتحدة.

إلا أن طرفي الصراع (النظام والمعارضة) لم يلتزما بالفقرات التي وردت في إجتماع جنيف(1).

وفي إطار المساعي الروسية الأمريكية إتفاق وزيري خارجية البلدين في آيار/ ماي 2013 مع طرفي الصراع للجلوس على طاولة المفاوضات من جديد، من أجل التوصل الى حلول توفيقية، سيما أن عدم توفر البديل والإصرار على عدم التوصل إلى إتفاق يعني وصول سوريا إلى حافة الهاوية، وهذا ما أكده وزير الخارجية الأمريكي جون كيري، إلا أن هذه المساعي الأمريكية والروسية باءت بالفشل.

لم تدخر، الأمم المتحدة جهداً في التوصل إلى حلول ممكنة، تمكن الطرفين من تشكيل حكومة إنتقالية، وهو التوجه الذي دعمته أربعين دولة دون مشاركة إيران الطرف الإقليمي الفاعل بالأزمة، في محاولة جديدة في إجتماع وأطلق على جنيف (2)، إلا أن مخرجاته أسفرت عن تفاقم الخلاف بين الغرب والمعارضة، من جهة وروسيا والنظام، من جهة أخرى، فقد أعلن وزير روسيا عن تشاؤمه بأن المفاوضات لحل الأزمة ليست سهلة وسريعة، داعياً القوى الدولية والإقليمية بعدم التدخل بالشأن السوري، وأن الشعب هو الذي يقرر مصيره، وأن الإبتعاد عن تزويد المعارضة بالسلاح هو الحل الأمثل وأن الحل السياسي والحوار هما النتيجة النهائية التي تضع حدًا لهذه الأزمة.

وبعد فشل محاولات هيئة الأمم المتحدة في تحركاتها في تطوير الأزمة، ومع تفاقم العنف المسلح بين النظام والمعارضة المسلحة دعت الحكومة الروسية في كانون الثاني/ جانفي 2015 أطرافاً من المعارضة والنظام إلى إجتماع في موسكو أطلق عليه موسكو(1)، وأعقبه موسكو(2)، في غياب الائتلاف الوطني السوري، إلا أن المؤتمران لم يحققا شيء يذكر⁽¹⁰⁾.

وفي ظل إستعادة النظام قوته أنطلقت مفاوضات جنيف (3) في 29 كانون الثاني بل أصبح التوازن يميل لصالحه مع إستمرار الدعم الجوي الروسي للقوات النظامية، فقد توصل وزيري خارجية روسيا و الولايات المتحدة الأمريكية في 11 شباط /فيفري التوصل إلى إتفاق لوقف العمليات العسكرية في سوريا على هامش مؤتمر ميونخ للأمن، وخلال الأسبوعين الذي أعقب إعلان وقف إطلاق النار ومع حصول خروج كبيرة من النظام فإن الإتفاق ظل صامداً، إلا أن القتال أشتأنف من جديد، وأعلنت روسيا بأنها على إستعداد للإتفاق على هدنة من أجل فسخ المجال لإيصال المساعدات الإنسانية للمدنيين إلا أن قصف إحدى قوافل المساعدات العائدة للأمم المتحدة عقد الأزمة وإتهمت الطائرات الحربية الروسية بقصفها.

يتضح مما تقدم بأن جولات الإجتماعات والمفاوضات حول الأزمة السورية لم تحقق شيء يذكر، وإنما كانت روسيا تسعى لتحقيق أهداف محددة وهي :⁽¹¹⁾

- محاولة روسيا بأن يكون الحل بيدها وإبعاد القوى الدولية والإقليمية من أي دور في حل الأزمة.
- الضغط على المعارضة السورية ومحاولة إضعافها، ودعم النظام بالشكل الذي يحقق تفوقاً على حساب هذه المعارضة من أجل الإخلال في التوازن، وفرض الحلول التي تصب في صالح النظام.
- الإصرار على بقاء نظام الأسد.
- تنشيط الدور الروسي في المنطقة، بعد تراجع علاقاتها مع أغلب دول منطقة الشرق الأوسط، كالعراق واليمن والسعودية.
- بعد مرور أكثر من أربعة سنوات تبين ضعف الدور الأمريكي في حلحلة الأزمة.
- وجدت روسيا في الأزمة السورية فرصة للحضور على المسرح الدولي، بسبب العزلة التي واجهتها بعد الأزمة الأوكرانية.

الدور الروسي في إفشال مشاريع القرارات الأممية.

بعد مرور سبعة أشهر على بدايتها دخل مجلس الأمن على خط الأزمة السورية وتحرك في الخامس من تشرين الأول/أكتوبر 2011 بمشروع قرار أجهضته كل من روسيا والصين وتضمن القرار ما يلي: ⁽¹²⁾

- دعوة النظام السوري إلى الوقف الفوري لإنتهاكات حقوق الإنسان .
 - وقف العنف من أجل الحفاظ على أرواح المدنيين.
 - دعا القرار إلى عملية إصلاح سياسية شاملة لتحقيق تطلعات الشعب السوري في تحقيق الحرية والتقدم.
- وإستخدمت روسيا والصين في الرابع من شباط/ فيفري 2012 حق النقض ضد مشروع قرار عربي-غربي، لإقرار خطة الجامعة العربية، التي تدعو إلى تنحي الرئيس بشار الأسد وتسليم سلطاته إلى نائبه، وتضمن مشروع القرار تبني خطة عمل الجامعة والقرارات اللاحقة الصادرة عنها، بما في ذلك القرار الذي يهدف إلى حل سلمي للأزمة، وأهمية ضمان العودة الطوعية للاجئين والمشردين داخليا إلى ديارهم في ظل المحافظة على أمنهم وكرامتهم ووضع الدول الأعضاء في إعتبارها أن الإستقرار في سوريا هو مفتاح السلام والإستقرار في المنطقة . تقدمت بريطانيا بمشروع قرار إلى مجلس الأمن في 18 تموز/ جويلية 2012 تضمن تمديد مهمة المراقبين الدوليين لمدة 45 يوما، وفرض العقوبات على سوريا بموجب الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة ، إلا أن القرار أجهض بسبب الفيتو الروسي الصيني.

والجدير بالذكر، أن مجلس الأمن قد تبنى بالإجماع في 27 ايلول 2013 قرار، يقضي بتدمير الترسانة النووية السورية في منتصف عام 2014، بعد إتهام النظام بإستخدامه الأسلحة الكيماوية ضد المدنيين، وأسفر عن مقتل آلاف الأشخاص كما دعى القرار إلى عقد مؤتمر دولي لتطبيق بيان جنيف (1) والذي طالب كل الأطراف السورية بالمشاركة بشكل جاد وبناء والإلتزام بتحقيق المصالحة والإستقرار.

وتجسيدا لما سبق، أعلنت روسيا دعمها لسوريا ووقوفها إلى جانبها في مواجهة محاولات قوى غربية وإقليمية فرض أجندات تتعارض مع القانون الدولي، ومصالح الشعب السوري وإستقلالية الدولة السورية، وتستخدم مجموعات إرهابية مسلحة لتحقيق ذلك، حيث لجأت روسيا إلى إستخدام حق النقض/الفيتو أربع مرات في مجلس الأمن الدولي لمنع تلك القوى من تمرير مخططاتها التدخلية ضد سوريا، عبر المنظمات الدولية، وبما يخالف الأسس والمبادئ التي قامت عليها، وكان آخرها إستخدامها والصين هذا الحق ضد مشروع قرار فرنسي بشأن سوريا.

الانتقال من الدعم إلى المشاركة

بذلت الحكومة الإيرانية جهودا كبيرة في سبيل إشراك روسيا عسكريا في الأزمة، فقد زار قائد فيلق القدس (الجنرال قاسم سليماني) في تموز/ جويلية 2015 روسيا، وجرى عقد لقاءات لترتيبات عملية التدخل العسكري المباشر، بعد أن تعرض النظام السوري إلى إنتكاسات عسكرية، وخسارته لمدن وأراض لصالح المعارضة المسلحة، وبدأت روسيا بإتخاذ التدابير التي من شأنها التدخل مباشرة، فقامت الحكومة الروسية بـ: ⁽¹³⁾

- إستكمال التجهيزات العسكرية للقاعدة الروسية في طرطوس.
- إنشاء عددا من القواعد العسكرية في عددا من المحافظات السورية.
- نقلت الحكومة الروسية 30 طائرة حربية وطائرات سميتة لتمكينها من تنفيذ غارات يومية.

و أعلن الرئيس الروسي بأن الهدف من التدخل العسكري المباشر يكمن في حماية الشرعية، في إشارة منه لحماية النظام، وحماية المصالح الروسية في المنطقة، وباركت الكنيسة الأرثوذكسية التدخل و وصفته (بالمقدس).

وعلى إثر التطورات التي شهدتها الساحة السورية والمتمثلة في تنامي قدرات المعارضة المسلحة، سعت روسيا إلى الانتقال من الدعم اللوجستي إلى الدعم المباشر من خلال التدخل العسكري، لتغيير ميزان القوى لصالح النظام ولدعمه في الدفاع عن المناطق التي تحت سيطرته، وفي ذات الوقت محاولة إستعادة بعض المواقع الإستراتيجية التي فقدتها بعد أن توصلت القيادة الروسية إلى أن الدعم اللوجستي لا يكفي في إيقاف التقدم الذي إستطاعت المعارضة المسلحة من تحقيقه ما بين عامي 2014 و 2015.

فقد أعلنت القيادة الروسية بأن دعمها لسوريا لا ينطلق من إعتبارات شخصية أو مصلحة ضيقة، بل يستند دوماً إلى مصلحة الشعبين السوري، والروسي كما أن هذا الدعم هو موقف مبدئي وثابت غير خاضع للمساومة والضغط والإغراءات، الأمر الذي دفعها للعمل دون كلل لإنهاء الأزمة في سوريا⁽¹⁴⁾.

ومن الواضح أن التدخل الروسي قد أثر كثيراً في سياسة الولايات المتحدة الأمريكية، والدول الإقليمية الداعمة لقوى المعارضة المسلحة، التي جاءت ضمن حسابات الربح والخسارة، لذلك كان الروس أكثر فاعلية من الدول الإقليمية الداعمة للمعارضة المسلحة، كالسعودية وقطر وتركيا، لأن الدور الدولي دائماً يكون أقوى من الدور الإقليمي كما حاولت توظيف الدور الإيراني الداعم للنظام لصالح توجهاتها في ترصينه وإستعادة قدراته الذاتية⁽¹⁵⁾.

القرار الروسي بالانسحاب

جاء القرار الروسي المفاجئ والذي أعلنه الرئيس بوتين عن سحب الجزء الأكبر من قواته إبتداءً من 15 آذار/ مارس 2016 فقد ورد في البيان الصادر عن الرئاسة الروسية أن قرار الانسحاب جاء بعد أن حققت القوات الروسية الجزء الأكبر من أهدافها كما أعلن الناطق الصحفي بأن انسحاب قوات بلاده من سوريا ليس الغاية منه الضغط على نظام الرئيس السوري، وإنما جاء بناءً على أن المهمة الرئيسة لبلاده في سوريا تكمن في المساهمة بمنتهى الفعالية في عملية التسوية بين الأطراف⁽¹⁶⁾.

وعلى الرغم من أن دخول روسيا على خط الأزمة جاء متأخراً إلا أنها :

- أنقذت النظام من الإنهيار وإستعادة بعض الأراضي التي سيطرت عليها المعارضة .
- وضعت روسيا خطوطها الحمراء أمام أي تدخل عسكري من قبل دول التحالف لإسقاط النظام، لأن الدعوات من قبل عدد من القيادات في الكونغرس الأمريكي بضرورة إسقاط النظام عسكرياً.
- بعثت روسيا برسائل إلى دول التحالف بأن تدخلها العسكري يؤكد بأنها ما تزال قوة كبرى تدافع عن مصالحها.

وهكذا ، فإن إثبات الذات وإظهار روسيا كقوة لا يمكن الإستهانة بها في تعامل الغرب معها، لاسيما في الأزمة الأوكرانية وفرض الحصار عليها ، فجاءت الأزمة السورية لكسر العزلة التي فرضت عليها وأصبحت الوحيدة القادرة على التواصل مع الأطراف الإقليمية والدولية، فكانت مؤثرة على الموقف الإيراني والتركي، فضلاً عن ذلك بأنها بدأت تنسج لها علاقة وطيدة مع الأطراف المعتدلة من المعارضة⁽¹⁷⁾.

وعليه، فإن التدخل الروسي في سوريا، قد قلب موازين القوى في المنطقة، لاسيما الإصرار على بقاء النظام السوري، وتقوية الجبهة المناهضة لدعم المعارضة السورية المسلحة المدعوم من الولايات المتحدة الأمريكية ودول الخليج العربي.

القدرات الروسية في التدخل

ما تزال روسيا تؤدي دور القوة الكبرى في محيط العلاقات الدولية، وما تتمتع به من وزن سياسي ودبلوماسي في مجلس الأمن إضافة إلى ما تحتفظ به من أثر الاتحاد السوفياتي، وعلى الرغم من محاولات إضعافها وإحتوائها، إلا أن هناك من دعا ضرورة إلى تشجيع توجهها نحو الديمقراطية.

من جانب آخر، تزداد مصالح الدول مع زيادة قدراتها المادية وإنتشارها العسكري، وروسيا من الدول التي لها إنتشار عسكري يشمل بعض دول آسيا الوسطى والقوقاز، والتي ما تزال لها بعض القواعد في أوروبا الشرقية وفي منطقة الشرق الأوسط، وتمتلك من وسائل القوة التي تمكنها أن من تأدية دور على المستوى الدولي، فهي تحتل سابع إقتصاد على المستوى العالمي، وتمتلك وتصنع أسلحة إستراتيجية (تمتلك 771000 دبابة و 1337 ألف طائرة عسكرية مقاتلة و 7000 رأس نووي)، لذلك تعد من الدول المتقدمة في المجال العسكري، لاسيما في منظومات التسليح الجوي والأسلحة الدفاعية، كما أن لها قاعدتها العسكرية الوحيدة في منطقة الشرق الأوسط في سوريا، في مدينة طرطوس، بوصفها الحليف العربي الوحيد لها في المنطقة⁽¹⁸⁾.

ومن الواضح، أن الثقل العسكري الروسي في الأزمة قد قلب موازين القوى، سيما أنها أعلنت بأنها ستقاتل الجماعات الإرهابية المسلحة، وأن إستمرارها سينعكس سلبا على الأمن القومي الروسي، وهو ما دفع بها بإستمرار إلى السعي لتطوير منظوماتها العسكرية الموجودة في سوريا لاسيما أنها كانت بحاجة إلى إستخدامها وقياس مدى فاعليتها، على المستويين الإقليمي والدولي.

المحور الثالث: الموقف الإقليمي والدولي من التدخل الروسي

لقد فاقم التدخل الإقليمي والدولي المباشر وعبر الوكلاء في الأزمة السورية وتداعياتها على كل المستويات، وتدهور علاقاتها مع محيطها، وهو الوضع الذي تبينه تجاهها، حيث تسببت في تدمير المجتمع والدولة أهم المواقف الإقليمية والدولية:

أولا: الموقف التركي

أحدث التدخل الروسي في الأزمة السورية تحولا في الدور التركي حيال الأزمة، فبعد أن كانت تطالب بإقامة منطقة أمنة على حدودها الجنوبية، فإن التدخل نسف كل الطموحات التركية من تغيير النظام توفير المناطق العازلة، بل أصبحت في مواجهة مع روسيا، رغم العلاقات الإقتصادية المتينة، بل تحولت إلى إشتباك دبلوماسي وسياسي معها. لقد أدركت الحكومة التركية بأن التدخل الروسي قد قلب موازين القوى لصالح النظام السوري، وفرض معادلة جديدة على المستوى الداخلي⁽¹⁹⁾، كما يسعى إلى فرضها على المستوى الإقليمي.

من جانب آخر، فإن التدخل الروسي قد دعم تقدم قوات وحدات حماية الشعب الكردي، والتي تعتبرها تركيا تهديدا لأمنها القومي، في حال أي تقدم تحققه على مستوى تكوين الكيانات الكردية المستقلة ، لا سيما أن طموح الحركات ربط المناطق من أقصى الشمال إلى أقصى الشرق⁽²⁰⁾.

ويتضح أن تركيا، توجد أمام موقف صعب بعد التدخل العسكري الروسي، لا سيما بعد إسقاط الطائرة الروسية من قبل القوات التركية، حيث تسببت هذه الحادثة في تدهور العلاقات الثنائية.

ثانيا الموقف الإيراني

تعد إيران اللاعب الرئيس في الأزمة وبجهود قادتها الذين أقنعوا الرئيس الروسي بالتدخل العسكري في الأزمة لإنقاذ النظام السوري، لأن مصلحة إيران إشراك روسيا كي يكون الصراع على المسرح السوري صراع دولي وإقليمي وأن الموقف الإيراني يصب في اتجاهين الأول يتمثل في مساهمة القوات الروسية في محاربة الفصائل المسلحة بحرا وجوا، ومحاربة إيران لهذه الفصائل برا والثاني تدعيم القوات الروسية لإيران في مواجهة القوة الإقليمية كالسعودية وتركيا، ووقوف روسيا في مواجهة أمريكا دوليا.

ثالثا الموقف السعودي

تبدو المخاوف السعودية من التدخل الروسي في سوريا متمثلة في قيام تحالف روسي -إيراني- سوري وأن دخولها بهذه القوة في الحرب دعم الموقف الإيراني، كما دعم النظام السوري، وأن السعودية لن تقبل بأي حال من الأحوال بانتصار إيراني في سوريا، وبقاء النظام تحت حكم بشار الأسد، إذ أنها منذ بداية الأزمة أعتبرت تغيير النظام هو لحل الواقعي لهذه الأزمة.

وعلى الرغم من محاولات السعوديين عبر الزيارات المتكررة لدفع القادة الروس إلى إتخاذ موقف حيادي من الأزمة، إلا أن جهودهم لم تحقق شيئا، ويمكن إختصار الموقف السعودي بالنقاط الآتية :

(1) إزاحة الرئيس بشار الأسد عن السلطة، وهذا ما يتعارض مع الموقف الروسي، والذي هو بالأساس جاء لإنقاذ النظام.

(2) محاولة السعودية إبعاد سوريا عن دائرة النفوذ الإيراني، وتعطيل أية توسع لدور إيراني في المنطقة، وهذا أيضا ما يتعارض مع الرؤيا الروسية للأزمة.

الموقف الدولي

1. موقف الولايات المتحدة الأمريكية من التدخل الروسي

بعد إنتهاء الحرب الباردة سعت الإستراتيجية الأمريكية إلى محاولة جعل روسيا المساعد لقوتها الأحادية الجانب، وقد حذر مستشار الأمن القومي الأمريكي السابق هنري كيسنجر من ترك روسيا وعدم التحكم بها سينمي تطلعاتها

القومية، ويجب الإنتباه جيدا إلى دروس التاريخ (لان الأداء الخارجي لروسيا تاريخيا مثل أكبر تحد للإستقرار الدولي)⁽²¹⁾

ولقد أعلن فلاديمير بوتين بأنه أثناء مراسيم تنصيب (يتعين علينا معرفة تاريخنا كما هو فعلا، وإستخلاص الدروس منه، وتذكر أولئك والذين أسسوا الدولة الروسية الذين دافعوا عن كرامتها، وجعلوها دولة عظيمة قوية جباره)⁽²²⁾

وفي الوقت الذي تسعى فيه روسيا / بوتين إستعادة أمجادها ، وتأكيد حضورها الفاعل في العالم، ومحاولة مزاحمة الولايات المتحدة الأمريكية ، إلا أن الوقائع على الأرض تشير إلى أن هناك إتفاقا روسيا أمريكا على الخطوط العامة لحل الأزمة السورية، مع ملاحظة وجود إختلاف في تفاصيل حلها، فعلى سبيل المثال ترى الولايات المتحدة الأمريكية بأن حل الأزمة من خلال إستبعاد الرئيس الأسد، وتسليم النظام إلى المعارضة، فيما تدعم روسيا بقاء الرئيس الأسد وضرورة القضاء على المعارضة المسلحة.

لم تعترض الولايات المتحدة الأمريكية على ضرب الطائرات الروسية للمعارضة المتطرفة، لاسيما تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) إلا أن روسيا أنهمت بأنها قامت بضرب المعارضة المعتدلة.

2. موقف دول الإتحاد الأوروبي من التدخل

إستنكرت دول الإتحاد الأوروبي التدخل الروسي ، وتصدر الموقف الفرنسي الذي كان أكثر شدة من تداعيات التدخل، ففي المحادثات التي أجراها الرئيسين الفرنسي فرانسوا هولاند والروسي فلاديمير بوتين لم تسفر إلى نتائج إيجابية، بسبب إختلاف وجهات النظر، وكان الرئيس الفرنسي وجه انتقادات حادة لروسيا، وقال بأنها) باتت حليفة للأسد وليست حليفة لنا) ، وطلب من روسيا بأن تنحصر الضربات الجوية بتنظيم داعش، وتجنّب المدنيين والمعارضة المسلحة المعتدلة من القصف⁽²³⁾.

أما موقف بريطانيا فكان أكثر دبلوماسية فقد دعا رئيس الوزراء البريطاني السابق ديفيد كامرون إلى ضرورة تشكيل حكومة إنتقالية مع بقاء الأسد في هذه المرحلة، وعد التدخل الروسي في سوريا بالخطأ مع تعهده بزيادة قوات بلاده⁽²⁴⁾. أما الموقف الألماني فركز على بعدين في معالجة الأزمة الأول تشكيل حكومة إنتقالية، وأن لا يكون الرئيس السوري جزءا من الحل على المدى الطويل.

ويتضح أن المواقف الأوروبية كانت متفقة بأن التدخل الروسي أصبح جزءا من المشكلة، وأنه رفع منسوب العنف وإرقاة دماء المدنيين الأبرياء، وأن الانتقال إلى مرحلة الحكم الإنتقالي مع عدم ضرورة إستبعاد الأسد في الوقت الحاضر.

المحور الرابع: مستقبل التدخل الروسي في الأزمة السورية

ما تزال الأزمة السورية مفتوحة على كل الاحتمالات، فالتدخل الأقليمي والدولي عطلّ التوصل إلى حلول يمكن من خلالها حقن دماء السوريين، فالدول الإقليمية المتمثلة بإيران والعراق وتيارات حزبية وشعبية في لبنان ترى بأن

بقاء نظام بشار الأسد والقضاء على المنظمات الإسلامية المتطرفة وفسح المجال أمام الشعب السوري بتقرير مصيره هو الحل الأمثل للامنة، وأطراف إقليمية أخرى كتركيا ودول الخليج العربي وفي مقدمتها المملكة العربية السعودية ترى ضرورة تغيير النظام وتنحية بشار الأسد عن الرئاسة السورية، أما الأطراف الدولية فروسيا والصين، من جهة، داعمات للنظام والولايات المتحدة الأمريكية ودول الاتحاد الأوروبي داعمين للتوجه الاقليمي الأخير⁽²⁵⁾.

مشهد استمرارية التدخل العسكري الروسي في الازمة

بعد عدم تمكن روسيا من الحفاظ على مكانتها في العراق، وإحتلاله من قبل الولايات المتحدة الأمريكية، وخسارتها أيضا لموقعها في ليبيا ترى بأنها لا تريد خسارة سوريا هذه المرة التي تربطها بعلاقات إستراتيجية بوصفها ضمن حدود نفوذها في منطقة الشرق الأوسط، وعلى إثر التلكؤ الأمريكي الغربي والإقليمي في معالجة الأزمة السورية دفع بها إلى التدخل العسكري، وهو ما أدى إلى نجاحها في إنقاذ النظام ، وفي تحجيم دور المعارضة المسلحة، بل إستطاعت ومن خلال سلاحها الجوي من تدمير المواقع الدفاعية للمعارضة المعتدلة والمتطرفة، وهو ما أهلها لإحتلال الرقم الصعب في الأزمة السورية على الرغم من الإجتماعات الماراتونية المتكررة بين وزير الخارجية الروسي ونظيره الأمريكي إلا أنها لم تحقق النتائج المرجوة.

ويبدو أن التحالف الذي تحقق بين ايران وروسيا وحزب الله والنظام، سيسهم في إستمرارية التدخل الروسي في الأزمة السورية وبالأخص على إثر تشكيل مكتب للمعلومات الإستخبارية من قبل كل من روسيا وإيران والعراق وسوريا. وهو ما يبين أن المصالح الروسية تقتضي الاستمرار بالتدخل العسكري، رغم إهتزاز مكانتها في المنطقة لاسيما من قبل دول الخليج العربي.

أو الجدير بالذكر، أن الرئيس الأمريكي المنتخب دونالد ترامب أعلن عن توافقه مع روسيا في قتالها للجماعات الإرهابية ولا يوجد في بقاء بشار الأسد تأثيراً على المصالح الأمريكية، وأنه سبق وأعلن بأن الولايات المتحدة الأمريكية أخطأت عندما أسهمت في سقوط النظامين العراقي والليبي.

مشهد انسحاب روسيا

كان الهدف الأكبر من التدخل العسكري الروسي في سوريا هو محاولة تحويل العلاقات مع الغرب بسبب الأزمة الأوكرانية، على أنهما يواجهان خطراً مشتركاً من تنظيم الدولة الإسلامية، مما سيدفع الغرب الى تحالف معها ضد التنظيم، وكان هذا هو محور خطاب الرئيس بوتين في الأمم المتحدة مع بداية الحملة الجوية في سوريا. وتعتقد القيادة الروسية أنها حققت الكثير من أهدافها خلال العملية العسكرية، ووجهوا رسائل لدول الأقليم ان سوريا هي ساحة نفوذهم على المتوسط وفي العالم ، وأن يتعامل معهم لحل أي مسألة متعلقة بها.

ويبدو أن القيادة الروسية بدأت تعاني من التكلفة العالية للحرب في ظل تراجع أسعار النفط وتقدر تكلفة العمليات الروسية في سوريا بنحو مليار ونصف المليار دولار، وهو رقم كبير من إجمالي الموازنة الحربية الروسية، وأنها لن تقدم مصلحة بشار الأسد على مصلحتها ولن تستطيع الإستمرار بحرب طويلة، بالإضافة إلى أن هذا التدخل قد يتحول إلى مواجهة مباشرة مع الولايات المتحدة والغرب، لاسيما بعد إتهام القوات الروسية بارتكابها مجازر من خلال قصفها

المدنيين في مناطق حلب وأدلب، ووصفت الإدارة الأمريكية هذه الأعمال (الشائنة) وقد تطول لأعوام دون تحقيق نتائج، مع امكانية تطور المواجهة لدخول لاعبين إقليميين، وهذا ما يحصل الآن من توغل تركي وإيراني في سوريا، مما قد يدفع روسيا إلى الإنسحاب تدريجيا من التدخل العسكري.

الخاتمة

التدخل الإقليمي والدولي في الأزمة السورية عطل التوصل الى حلول وسط ما بين النظام والمعارضة وجاء التدخل العسكري الروسي ليعبئ الزيت على النار، فالدوافع الروسية تهدف الى محاولة العودة الى الساحة الدولية كقوة دولية فاعلة ، مستغلة الفوضى التي تسود منطقة الشرق الأوسط، بوصفها فرصة سانحة لها ، كما أن الحفاظ على مصالحها في المنطقة لاسيما في سوريا في ظل وجود قاعدة عسكرية لها في ميناء طرطوس وأخرى جرى إنشائها في مرفأ اللاذقية دفعها للتمسك بالحضور وبقوة في سوريا.

وتحاول روسيا بناء تحالفات جديدة في المنطقة على غرار التحالفات التي تقوم بها الولايات المتحدة مع دول الخليج العربي ، لكنها لم تنجح سوى مع إيران وسوريا.

إدراك القيادة الروسية برئاسة الرئيس فلاديمير بوتين بأن ضعف النظام وإنهياره أمام ضربات المعارضة المسلحة سينعكس سلبا على مصالحها، لذلك جاء التدخل العسكري ليعزز من قدرات النظام ومواجهة الفصائل المتطرفة وفي مقدمتها تنظيم الدولة الإسلامية ، التي يراها الرئيس بوتين تهديدا للأمن القومي الروسي، كما أن روسيا تسعى لأن يكون لها دورا في التسويات الخاصة بالأقليات في المنطقة، لاسيما طموح الأكراد في تحقيق حلمهم لبناء الدولة الكردية .

وعليه فإن هذا التنافس الدولي الجديد في منطقة الشرق الأوسط يراد منه إعادة رسم الخارطة السياسية على غرار ما تم رسمه وفق إتفاقية سايكس بيكو عام 1916 ولكن بطريقة تتماشى مع المتطلبات الجديدة للحفاظ على مصالح القوى الدولية في المنطقة فالدولة الكردية قادمة التي تبدأ من إقليم كردستان في العراق إلى المناطق الغربية من سوريا، بل أن بوادر التقسيم جاهزة لكل من العراق وسوريا واليمن وإحتمالات إنضمام بعض دول الخليج العربي وإخراجها في هياكل دولية مستحدثة.

الهوامش :

- (1) Rami, Ginat, The Soviet union and the Syrian Ba'th regime: from hesitation to rapprochement, middle eastern studies, vol:36, April (1) 2000, p150-171.
- (2) الجزيرة نت، روسيا تشطب 73% من ديون سوريا، 2005/1/25.
- (3) خلدون خيريك، العلاقات السورية الروسية: سياسيا وعسكريا واقتصاديا وثقافيا، دام برس، 2012/6/27.
- (4) لمزيد من المعلومات للزيارة السرية للرئيس السوري بشار الأسد إلى موسكو ينظر: arabic.rt.com/news/797578.
- (5) إلى أين تتجه العلاقات السورية . الروسية بعد زيارة ميدفيديف لدمشق ؟، صحيفة اخبار الخليج، 2010/7/26.
- (6) زيارة الرئيس الروسي الى سوريا تحمل رسالة الى الغرب، 2010/5/11، ينظر الموقع: www.middle-east-online.com.
- (7) عبد الكريم صالح المحسن، تاريخية العلاقات السورية-الروسية، موقع دنيا الوطن، 2012/5/12..
- (8) عبد الباري عطوان، اخبار غير سارة لأمريكا وحلفائها العرب: قوات روسية تقاتل الى جانب النظام في سورية وتدفق المعدات العسكرية متسارع.. وبوتين متمسك ببقاء الرئيس الأسد.. ويتحدث عن انتخابات تشريعية مبكرة.. فماذا تعني كل هذه المتغيرات في المشهد السوري؟، 2015/9/7 ينظر موقع رأي اليوم : <http://www.raialyoum.com>.
- (9) الجزيرة نت، اتفاق جنيف 2014/1/1، 26.
- (10) عامر السبيلة، الأزمة السورية بين اختلافات "جنيف 2" وتوافقات "فيينا 2"، CNN بالعربية، 2015/10/30، <http://arabic.cnn.com/middleeast/2015/10/30/opinion-amer-sabayleh-n>
- (11) الجزيرة نت، تدخل روسيا بسوريا.. حصاد مئة يوم، 2016/1/7.
- (12) عمر كوش، روسيا والازمة السورية، 2012/3/30، ينظر موقع الجزيرة :
- (13) دبشير زين العابدين، التدخل الروسي في سوريا: المخاطر والفرص الكامنة، مجلة العصر، 2015/10/3.
- (14) سورية وروسيا.. علاقة ثنائية من بوابتها ترسم ملامح جديدة للعلاقات الدولية، الوكالة العربية السورية للانباء، 2015/6/10.
- (15) التدخل الروسي في سوريا ... يخدم من ؟، الجزيرة نت، 2015/9/30.
- (16) المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، مصدر سبق ذكره.
- (17) بشير موسى نافع، انسحاب روسي مفاجي من سوريا، القدس العربي، 2016/3/24.
- (18) عدنان كريمة، سورية «عقدة» مصالح روسيا الاقتصادية ونفوذها، الحياة، 2015/9/21.
- (19) اسماعيل جمال، محللون أترك لـ «القدس العربي»: التدخل الروسي في سوريا يهدد أنقرة ويفشل مخطط «المنطقة الآمنة»، القدس العربي، 2015/9/22.
- (20) حسين محمد، "قوات سوريا الديمقراطية" .. بين دعم أمريكي وتشكيك روسي، روسيا اليوم، 2015/10/13.
- (21) هنري كيسنجر، هل تحتاج امريكا الى سياسة خارجية؟ ترجمة عمر الايوبي، دار الكتاب العربي، بيروت.
- (22) دغسان العزي، المشهد الاستراتيجي الدولي بعد 11 ايلول 2001 (اميركا وروسيا والصين)، مجلة الدفاع الوطني ، العدد 39، كانون الثاني 2002.
- (23) لانا اللبابيدي، التدخل الروسي في سوريا.. قراءة في المواقف الاوروبية، موقع كلنا شركاء، 2015/10/8.
- (24) لانا اللبابيدي، مصدر سبق ذكره.
- (25) سامر الياس ، التدخل الروسي في سوريا الاهداف المعلنة والنتائج الممكنة، موقع الجزيرة نت،